السؤال)، مشيرًا إلى أنه لا يوجد شيء أبدعه الإنسان، كالعلم مثلاً، في وسعه أن يحتل مكانة الإنصات الشعري والتحاور مع الطبيعة.

هكذا بدا أن المشروع الفلسفي للغرب، الذي تأسس كمشروع يملك الإجابة عن كل الأسئلة انطلاقًا من معطيات أساسية محددة، كما في الرياضيات انطلاقًا من بعض المسلمات أو من الفيزياء انطلاقًا من بعض القوانين النهائية .. هذا المشروع تحطم نهائيًا.

على أن ما يهمنا في هذا الصدد أمرين، الأول هو أن الثورة العلمية أثبتت أن الواقع لا يوجد بحد ذاته، وبأن الكون ليس آلة وبدلاً من النظر إلى الشيء في ذاته، لا بد أن نلتفت إلى شبكة العلاقات التي تربط الأشياء بعضها ببعض. فالشيء لا يوجد بحد ذاته، وإنما يوجد في علاقة، والعلم مطالب بأن ينظر إلى هذه العلاقة من الآن فصاعدًا، لذلك أسرع العلماء إلى إضفاء النسبية على نظرياتهم، حيث إن النظريات مجرد تخمينات لمقاربة حقيقة ما.

الأمر الثاني هو أنه لا توجد في العالم أسباب ونتائج وفق الصورة التقليدية للعالم، على العكس، يتجسد العالم، حسب الرؤية الجديدة، في حال من مجمل الأحوال، ولكل حالة احتمال محدد؛ أن أي فعل كوني، هو بمثابة تجربة، تستتبع عددًا محددًا من النتائج، ولا يقع الوعي الإنساني إلا على نتيجة واحدة منها حصرًا، فالعقل الإنساني نشأ وارتقى على مصادرة [السبب -- النتيجة] تلك المصادرة التي لا تيسر للعقل إلا أن يتعامل مع نتيجة واحدة للتجربة في لحظة معينة، حيث ينتقي العقل عادة الأقل احتمالاً، دون الالتفات إلى النتائج الأخرى.

ثالثاً: من نقد الثنائية الديكارتية إلى المناهج البينية:

يشبه الفيلسوف الأمريكي المعاصر "ستيفن تولمين" – Stephen Toulmin حركة الفكر الإنساني بعد القرن السابع عشر، بالحرف اليوناني "أوميجا" حيث يقول في كتابه cosmopolis "إن المذاهب الأساسية التي تأسس عليها الفكر الإنساني وما تبعها من ممارسات وأساليب، بدءًا من القرن السابع عشر، أعقبها منحنى يشبه حرف أوميجا. والآن، وبعد ثلاثمائة سنة، يبدو أن الأمر يدعونا إلى العودة إلى الوراء من جديد، حيث إن ما حدث طيلة هذه السنوات

كان فصل العلوم عن الإفادة منها في مختلف نـواحي الحيـاة، وأن أفكـار ديكارت ومطامحه الفلسفية جرت البشرية إلى الوراء"[٣٣].

والواقع أن كلام "تولمين" لا ينبغي أن يقرأ بعين واحدة، لأن اهتمام الفكر المعاصر بـ "ديكارت" يدل على أهميته، ومدى التأثير العميق لفلسفته. إنـه ذلك الاسم الذي اقترن غالبًا بالفلسفة والعلم معًا في العصر الحديث. وحـسب "تشومسكي" في كتابه "العلم الديكارتي": فإن أفكار ديكارت هي التي طبقها في نظريته عن "النحو التحويلي والتوليدي"، وكانت ملهمًا لأعماله اللاحقة. وفـي المقابل فإن العالم والطبيب الإيطالي "انطونيو داماسيو" Antonio Damasio ، كشف في كتابه المعنون بـ "خطأ ديكارت" عام ١٩٩٤، عن الدور الذي تلعبه الانفعالات في التفكير المنطقي، وهو ما أغفله ديكارت.

إن المنهج العلمي الحديث، الذي يقوم على الملاحظة والتجربة والوصف والتحليل الرياضي المنطقي، يدين بالكثير لـ "جاليليو" و "بيكون" و"ديكارت"، إذ لم يقرأ كتاب الطبيعة إلا بفضل هؤلاء. كان كل من "جاليليو" و "بيكـون" الخلاصة المبكرة للعالم المتمرس كما نعرفه اليوم، أما "ديكـارت" فهـو أول فيلسوف تطبيقي في العصر الحديث، رأى أنه يمكن اختزال العلوم كلها فـي الرياضيات، خاصة في مجال الهندسة – والتحليل الهندسي.

بيد أن أهمية "ديكارت" القصوى تكمن في أنه طرح السؤال الكبيـر: مـا الذي نعرفه .. وكيف نعرف؟ وهو سؤال المعرفة كلها، ولعل مقولتـه: "أنـا أفكر إذًا أنا موجود" هي أكثر المقولات شهرة، إذ أنها ما زالت تتردد حتـى اليوم.

وظهر التأثير البالغ لـ "ديكارت" في تقدم العلم الحديث، مع "نيوتن" على وجه الخصوص، وفي الفيزياء أساسًا إذ قـادت رؤاه المحـاولات المتعـددة لتطوير الفيزياء والرياضيات، ويكفـي أن نعرف أن الخصائص والـسمات المميزة لـ "الامتداد" و "الكتلة" و"الحجم" و "السرعة" و "القـوة" و "القـصور الذاتي" ...وكلها مفردات لغة الفيزياء، مستمدة من ديكارت، أضف إلى ذلـك أن تطور الفيزياء أدى بدوره إلى تطوير الرياضيات واللغة، وأصبحت "الدقة" و"التحديد" – إن لم تكن الصرامة –هي لغة العلم ومنهجه.

لكن ديكارت قال أيضًا بـ "الثنائية" Dualism بين (العقل – الجسم)، ومن ثم ظهرت مشكلة أساسية، وهي أن "العقل" Mind المجرد، يستقر في "المخ" (brain – body) وهو كائن عضوي، بينما الرياضيات تتعامل مع المجردات والتصورات العقلية، ومن ثم أصبح هناك لغز أساسي تولد من هذه الثنائية التي طبعت رؤيتنا للعالم وللإنسان وللأشياء، ويمكن صياغته كالتالي: كيف تستطيع أفكارنا المجردة، ومقاصدنا ومشاعرنا أن تسير أجسامنا الطبيعية، وتوجه أفعالنا وسلوكنا؟(٣٤)

إن "الثنائية" Dualism هي ذلك الاسم الذي عبر عنه الانشطار الحاد والفصل التعسفي بين:الروح – الجسد، الذات – الموضوع، العالم الباطني – العالم الخارجي، وقد ظلت تفعل فعلها زمنًا طويلاً قبل أن تتقدم العلوم الجديدة للفكر واللغة والرياضيات والاتصالات والبيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم. بل أصبح اليوم أي "باحث، أو أية نظرية علمية، لا تأخذ بعين الاعتبار "خطأ" العلم الديكارتي – حسب داماسيو – تصبح موضع اتهام، ناهيك عن السمعة السيئة التي تلاحقها.

والواقع أن الديكارتية وُوجهت بانتقادات في عصر ديكارت نفسه، ومن أبرز منتقديها "بليز بسكال" Pascal (1623 – 1662) الذي اعتقد على العكس من ديكارت: أن لكل موضوع من موضوعات المعرفة منهجًا ينبغي ابتكاره، وليس منهجًا واحدًا يطبق على جميع الموضوعات.

فالعقل والقلب متباينان في داخل الإنسان، وحسب بسكال "فإن لقلب الإنسان منطقه الذي هيهات للعقل أن يتفهمه ... وعبثًا يحاول العقل زعزعة المبادئ بالاستدلال، فإنها خارجه عن دائرته ولا شأن له فيها. ومن المضحك أن يطلب العقل إلى القلب الأدلة على مبادئه، كما أنه من المضحك أن يطلب القلب إلى العقل الشعور بالقضايا التي يستنبطها.

وقد رفضت أفكار بسكال في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، خاصة من الفيلسوف "ديفيد هيوم" Hume (1711 – 1776)، والذي جادل أيضًا ضد ليبنتز) ونظر إلى المعرفة نظرة آلية حسية، فالأشياء الكلية المجردة الموجودة في العقل مثل مفهوم "إنسان"، هي في حقيقتها مستخلصة من أشياء

جزئية مادية، أدركناها بالحواس، وعليه فإن الفكر صورة عقلية لمدركات حسية. الملفت في الأمر أن "بسكال" كان رياضيًا مثله مثل ديكارت، وإن اختلف عنه في تأكيده أن الرياضيات – رغم استخداماتها المتعددة – فإننا لانستطيع أن نستخدمها في كل شيء.

وعلى الرغم من انتصار "الثنائية" في القرون الثلاثة الماضية، فقد وجدت من يتصدى لها من الفلاسفة في القرن العشرين، أمثال: "هوسرل"... "هيدجر"... "ريكور"... "جادامر"... "سارتر"... "ميرلوبونتي"... "روي"... "فتجنشتين"... "دريفوس"... "هابرماس" وآخرون.

ومن العلماء، سواء في مجال البيولوجيا أو علم النفس: "ماتيورانا"... "فاريللا"... "داماسيو" وغيرهم، وأيضًا علماء الكمبيوتر الذين أثبتوا في العقد الأخير من القرن العشرين خطأ الرؤية الثنائية، وطرحوا أيضًا هذا السؤال: إذا كانت رؤية ديكارت صحيحة... فعلى أي أساس يكون علم "الكمبيوتر"؟... وتبلور هذا السؤال في مجموعة مؤلفات ظهرت تباعًا بدءًا من العام ١٩٨٧، وتدحض "الثنائية"، لـ "فينجراد"، "فلورس"، "لوسي ستشمان".

أول من تصدى لهذه "الثنائية" وحاول تجاوزها الفيلسوف الألماني "هيدجر" في كتابه العمدة "الوجود والزمان" عام ١٩٦٢، الذي أتبع فيه المنهج الفينومينولوجي لـ "هوسرل" – Husserl، وأثبت أنه يصعب أن نفصل رؤيتنا العقلية وأفكارنا عما نفعل في حياتنا اليومية، حتى في أبسط تصرفاتنا، وأن رؤية ديكارت (المبتسرة) لا تقودنا إلى الفهم الصحيح والعميق لحقيقة وجودنا[٣٥].

أما عالم البيولوجيا "هيمبرتو ماتيرانا" فقد ناقش النظرية الثنائية للمعرفة والطبيعة البيولوجية المعقدة، وكيف أدت إلى تضليل مسار الفكر والاتصال، في كتابه "أوتوبوسيس" ... Autopoiesis عام ١٩٨٠. وتوصل مع تلميذه "فاريللا" عن طريق "نظم الحياة الاصطناعية" إلى أن: التفاعل والتواصل بين البيئة – environment ونظم الحياة الاصطناعية – A - Life (المعلومات والتكنولوجيا) جعل من الصعب أن نفصل "العقل" عن "الجسد" أو التصورات الذهنية عن البيئة المادية التي نحياها.

obeikandl.com

هذه الفكرة عالجها بالتفصيل كل من "فاريللا" و "تومبسون" و "روستسن" في كتاب "العقل المندمج" عام ١٩٩١، والفيلسوف "دانيل دينيت" – Daniel Dennett في كتابه Consciousness Explained الصادر في العام نفسه، وفيه يؤكد أن فينومينولوجيا الوعي تستطيع وحدها أن تمدنا بالفهم الكافي والواضح، بالنظر إلى المسار المعقد لنظام التفاعل والتواصل مع الآخرين في العصور الغابرة.(٣٦)

أما الهجوم الأحدث للثنائية الديكارتية، فقد جاء من عالم الأعصاب والطبيب الإيطالي "داماسيو" – Damasio في كتابه "خطأ ديكارت" – Descartes error عام ١٩٩٤. وهو يعتمد في تفنيده للفكرة الديكارتية القائلة بأن العقل الإنساني يعمل بمعزل عن العمليات الجسمانية على الكيمياء العصبية؛ حيث يزعم أن العواطف تلعب دورًا مركزيًّا في اتخاذ القرارات الإنسانية. فالتصور القائل بأن العقل يوجد ككيان منفصل عن الجسم قد كان بعيد الأثر على الثقافة الغربية بشكل كبير منذ أعلن ديكارت مقولته الشهيرة: "أنا أفكر، إذًا أنا موجود"، ويقوم داماسيو رئيس قسم علم الجهاز العصبي. "النيورولوجي" بجامعة أيوا والباحث البارز في مجال وظائف العقل البشري، بتحدي هذه المقولة مقدمًا حججًا مدهشة ومقنعة تعتمد بشكل جيد على الدور المركزي الذي تقوم به العاطفة والمشاعر والانفعالات في المنطق الإنساني.

وطبقًا لما يقوله داماسيو، فإن تراكيب وتلافيف المخ brain-body نفسها هي التي تنظم البيولوجيا الإنسانية والسلوك الإنساني، ولا غنى عن الاثنين في عمليات الإدراك الطبيعية. ويوضح كيف أن المرضى المصابين بتلف في القشرة الأمامية للمخ لا تصبح عندهم القدرة على توليد العواطف أو الانفعالات الضرورية لاتخاذ القرارات على نحو فعال، من خلال دراساته للجهاز العصبي التي تجمع بين الرؤية والذاكرة واللغة.

ومن هذه الدراسات لتاريخ عديد من الأشخاص الذين أصيبوا بأضرار في المخ في المناطق التي تؤثر على وظيفة العواطف والانفعالات والشعور، دون أن يؤدي ذلك إلى أية إعاقة بدنية، توصل داماسيو إلى تأكيد حدوث خلل واختلال في وظائف اتخاذ القرار في العقل، مما يبين بما لا يدع مجالاً للشك

ارتباط الانفعالات بالعملية العقلية للتفكير والمنطق، وهذا يثبت خطأ المفهوم الديكارتي تمامًا، كما يؤكد ذلك أن الجسم والعقل يعملان معًا طوال الوقت ولا ينفصلان عن بعضهما في أية لحظة من اللحظات، ويكون الوعي الإنساني نتيجة مجموعة معقدة من الانفعالات والمشاعر والأحاسيس والعمليات العقلية والإدراكية التي تتصل ببعضها، وتتناول بشكل متبادل من أجل اتخاذ القرار.[٣٧]

بيد أن الخطأ الأكبر لهذه الثنائية الديكارتية تمثل في توجيه البحث العلمي نحو التقسيم – Parcellisation، تقسيم كل مشكلة إلى عدد مساو من الأقسام أو الأجزاء، ونحو المردودية ، بحيث أصبحنا سادة الطبيعة ومالكين لها، كما أنه أوجد شقة في المعرفة والثقافة، وفي داخل كل فرد منا، فقد انقسمت المعرفة إلى ما لا نهاية، إلى مناهج مختلفة ومتعددة ومستقلة إلى حد كبير، ليس بوسع أي فرد أن يسيطر على انتشارها، بينما يتضاءل باطراد احتمال أن يحيط أي مختص بكلية واحدة منها، إذ كيف لفرد واحد، مهما بلغت سعة إطلاعه، أن يحيط بكافة المعارف المتاحة، على الرغم من اتساعها وتنوعها وكثرتها، لا بل وتناقضها في كثير من الأحيان؟

هذا الوضع أدى إلى قطيعة عميقة بين واقع وجود العلم وفكرة العلم، بوصفه الشوط الأعلى للمعرفة البشرية، كما بسطتها الفلسفة منذ بداياتها. وقد نبه الفيلسوف الفرنسي "إدجار موران" – Morin[٣٨] إلى هذا الخطر أكثر من مرة، ففي مقال له عام ١٩٩٤ كتب يقول: "الحد المناهجي للمنهج، لغته، مفاهيمه سوف تعزله بالنسبة إلى المناهج الأخرى، وبالنسبة إلى المشكلات المشتركة بين المناهج".

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فإن التطور نحو التخصص الفائق تسبب في ردة فعل ترجمت إلى تقارب عدد من المناهج، واشتراكها في عدد من المفاهيم، من نحو مفهوم "البرادايم" – Paradigm أو النموذج الإرشادي الأساسي، وهو مفهوم بلورة "توماس كون" Thomas Kuhn وعني به ما يملكه ويشارك فيه أعضاء جماعة علمية (فيزيائيون، علماء فلك، علماء اجتماع ...)

obeikandl.com

وبالمقابل تتكون هذه الجماعة ممن يرجعون أو يستندون إلى هـذا النمـوذج نفسه.[٣٩]

ويبدو أن استخدام هذا المفهوم كأداة تحليلية قـد سـمح بتعيـين أكثـر الإنجازات قيمة وأهمية في مسيرة العلم، باعتباره مجموعة مـن الفرضـيات والقضايا الرئيسية، التي تحدد المشاكلات المنهجية والأساسية في مجال علمي معين، وتوجه النظر إلى الجوانب الأكثر دلالة في مرحلة تاريخية له.

ونتيجة لإحراز "النموذج الإرشادي الأساسي" – Paradigm لنجاح علمي مرموق، وتقديمه الحلول للمشكلة العلمية، عن طريق صـوغ منـضبط مـن التعميمات الرمزية المتصلة بهذه المشكلة، مثل قوانين نيـوتن علـى سـبيل المثال، فإن ميزة هذا النموذج هو أنه يوقف تنازع التيارات المتعددة والمختلفة المسيطرة في حقلها المعرفي، ويحولها إلى مدرسة واحدة، تمتلك نمطًا مـن العمل العلمي الأكثر فعالية.

وأيضًا مفهوم "التمثيل" Representation[٤٠] وهو من المفاهيم التي انتقلت من حقل معرفي إلى حقل معرفي آخر، واستخدمت كأداة تحليليـة وأثمـرت نتائج مذهلة. فقد كان من أكبر التحديات التي واجهت العقل الإنساني فهم (أو الوصول إلى) الأشياء التي نعرف أنها موجودة ولا نستطيع أن نراها، إذ إنه ليس كل ما هو حقيقي ومفيد، ملموسًا ومرئيًّا. فالزمن، على سـبيل المثـال، حقيقي، ولكن لا يمكن إدارته بصورة كفء، إلا عندما تمثله الساعة والتقـويم الزمني ... هكذا "واجه علم القرن العشرين مـشكلات التعقيـد بالاسـتعمال المتسق للنماذج التمثيلية، والنماذج التي تقتدي بالعناصر التي تبني العالم مـن حولنا بدلاً من تحليله، وهي استراتيجية نجحت في عدد متزايد مـن الحقـول المعرفية"[٤١].

وأدت الحاجة الماسة إلى روابط بين المناهج المختلفة إلى ظهور "تعددية المناهج" – Pluridisciplinarity و"المناهج البينية" Interdisciplinarity ، فـي النصـف الثاني من القرن العشرين، ظهورًا مشوشًا فـي المجتمـع العلمـي والأكاديمي. ففي مقاربة أولى، يمكن القول بأن عدة منـاهج، فـي تعدديـة المناهج، تتشارك دراسة موضوع مشترك، لا يستطيع أي منها أن يرصد كافة

مظاهره بالتقنيات والأساليب التي بحوزته وحدها، وحسب "ب. نيكولسكو" – Nicolescu فإن تعددية المناهج "تختص بدراسة عدة مناهج في آنٍ لموضوع واحد يتعلق بالمنهج الواحد نفسه"[٤٢]؛ إذ إن البحث المتعدد المناهج، يقدم شيئًا أكثر للمنهج المعني"، لكن هذا "الأكثر" يكون في خدمة هذا المنهج عينه حصرًا.

أما المناهج البينية فهي تتعلق بنقل الطرائق والأساليب من منهج إلى آخر؛[٤٣] بغية توسيع فهم مجال معين أو حقل معرفي معين أو بلوغ هدف مشترك. وعلى سبيل المثال، أدى نقل طرائق الرياضيات إلى الظواهر الارصادية الجوية أو أسواق المال إلى توليد نظرية الشواش أو الفوضى – Theory of Chaos، ومثلها مثل تعددية المناهج، تتخطى المناهج البينية "المناهج" لكن غائيتها تبقى هي الأخرى مندرجة في البحث المناهجي.

"إن المعارف المختلفة" والمناهج المتعددة، تقدم الكثير من المعلومات الجديدة والتبصرات الثاقبة، وخلفها يوجد تاريخ واحد. إلا أن في كل من هذه المناهج عديدًا من الثغرات إذا أخذ منفردًا، لكن معالجتها مجتمعة قد تسهم في ملء الفراغات. من هذه العلوم علم الآثار القديمة (الأركيولوجيا) وعلم الوراثة وعلم اللغة، الأنثروبولوجيا الثقافية، علم السكان (الديموغرافيا)، الاقتصاد، الإيكولوجيا، علم النفس، علم الاجتماع .. وكلها دعامات للتفسير والتأويل.

إن التاريخ عند البعض ليس علمًا (والتطور جزء من التاريخ)، فنتائجه لايمكن أن تتكرر، ومن ثم لا يمكن اختبارها بالمنهج التجريبي. لكن دراسة الظاهرة نفسها من زوايا مختلفة، من حقول معرفية ومناهج مختلفة – كل يوفر حقائق مستقلة – لها قيمة التكرار المستقل، الأمر الذي يجعل المعالجة متعددة النظم لا غنى عنها"[٤٤] وهي وحدها التي تمكن الباحث من رؤية الوحدة الجوهرية للعلوم ومناهجها، فضلاً عن أن تعددية المناهج اليوم أصبحت جزءًا من واقع معرفي إنساني جديد، لم تعد تغريه "الواحدية" في الرؤية وفي المواقف، بل هي تعددية في الفكر ومنطلقاته، والنزوع الإنساني الذي لم يكن ليقيم عند حالة واحدة تستحوذ عليه جميعه.